المعتقلات وتوظيفها في ممارسة الحرب النفسية على الجزائريين إبان الثورة التحريرية

أ. د. إبراهيم لونيسي
جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس

لقد عمدت السلطات الاستعمارية منذ اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م إلى استعمال شتى الوسائل والأساليب القمعية واللاإنسانية للقضاء عليها، ومن بين هذه الأساليب إلقاء القبض على كلّ جزائري مشكوك فيه، أو أشتبه في أمره على أنه من مدعمي الثورة، بل وفي الكثير من الأحيان قامت باعتقالات جماعية وعشوائية مما أدى إلى إمتلاء السجون الجزائرية، بل وحتى تلك المتواجدة على التراب الفرنسي وهذا رغم كثرتها، مما دفع بها إلى إيجاد المئات من المعتقلات والمحتشدات لتزج بها بعشرات الآلاف من الجزائريين، فما هي طبيعة هذه المعتقلات والمحتشدات؟

التعريف بالمعتقلات:

بدأت السلطات الفرنسية في إيجاد هذه المعتقلات ابتداء من منتصف سنة 1955م، بعد فرضها لحالة الطوارئ في 30 أفريل 1955م، التي تسمح للسلطات العسكرية الفرنسية باعتقال وسجن كل شخص يشتبه فيه أنه منتم، أو متعاطف مع الثورة، فقامت بالعديد من الاعتقالات الجماعية عساها تضع يدها على بعض المسئولين على إشعال نار الثورة،

حتى تضع حدا لها وإخمادها في أسرع الآجال، مما أدى إلى اكتظاظ السجون الفرنسية في الجزائر وفرنسا على حد سواء.

والمعتقلات عبارة عن أماكن محروسة ومحاطة بأسلاك شائكة تختلف إلى حد ما عن طبيعة السجون الكلاسيكية المعروفة، وإن كان جل الجزائريين يستعملون كلمة معتقل كمصطلح مرادف للسجن أو الحبس، ويعد معتقل (قلتة السطل) أول معتقل رسمي بالجزائر فتح خلال شهر ماي 1955م ويقع في إحدى مرتفعات جبال الأطلس الصحراوي القريبة من مدينة الجلفة، ويصفه لنا الأستاذ محمد الطاهر الأطرش الذي يعد من أوائل نزلاء المعتقل، بقوله: "... مررنا في هذه الرحلة على برج بوعريريج والمسيلة غربا إلى أن وصلنا إلى خط السكة الحديدية بين المدية والجلفة، ومحاذين له جنوبا، حتى استقرت القافلة شبه الحربية في مكان مجوف من الأرض، يشبه القلتة تماما ... نصبت فيه خيام على شكل صفين متقابلين وعلى مسافة منهما نصبت خيمة الحراسة بأضوائها الكاشفة، تسكنها فرقة عسكرية على رأسها ضابط لرتبة –كابيتان- ذلك هو معتقل قلتة السطل، كانت الحياة داخل المعتقل هذا قاسية جدا ... فالحرارة شديدة نهارا والبرد قارس ليلا، وكنا نسكن في خيام بالية وممزقة لا تقينا من هذا البرد ولامن تلك الحرارة، فضلا عن الزوابع الرملية المتلاحقة التي لم تثبت لنا خيامنا في إحدى الليالي، حيث اقتلعها ومزقت أكثرها..." (الأطرش، م. 1984: مج2/ج2/ 82- 83).

وقد ظهرت بعد هذا المعتقل العشرات من المعتقلات الأخرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر معتقل البرواقية وهو عبارة عن بناية

كبيرة إلى جانب السجن، وهذه البناية في الأصل كانت مصحة عسكرية ثم حولت إلى معتقل يحيط به الأسلاك الشائكة ويحرسها جنود لا تفوتهم أية حركة من تحركات المعتقلين (بن عتيق، م. 1990: 129)، ونذكر أيضا معتقل أركول الواقع بإحدى ضواحي وهران ومعتقل بوسوي الواقع جنوب سيدي بلعباس ومعتقل الدويرة غرب الجزائر العاصمة ومعتقل الشحمي الواقع بإحدى ضواحي مدينة وهران ومعتقل قصر الطير الواقع بالقرب من مدينة سطيف وغيرها من المعتقلات الأخرى.

والحديث عن المعتقلات يجرنا بالضرورة إلى الحديث عن المحتشدات نظرا للتشابه الكبير الموجود بينها وبين المعتقلات إذ أنها لا تختلف عنها كثيرا وهذه المحتشدات بدأت في الظهور بشكل واسع مع مجيء الجنرال ديغول إلى السلطة في منتصف سنة 1958م، وأولى هذه المحتشدات ظهرت في منطقة باتنة مع الشهور الأولى لاندلاع الثورة التحريرية، والمحتشد عبارة عن معتقل واسع جدا تعتقل فيه قرى ومداشر بكاملها بشكل غير مباشر بتهجير سكان هذه القرى والمداشر إلى مناطق معينة ثم تجميعهم تحت حراسة الجيش الفرنسي في مكان معين بعد أن يحاط بالأسلاك الشائكة.

وتتم عمليات تهجير السكان إلى هذه المحتشدات بطرق عديدة منها قيام الإدارة الاستعمارية بتهديد السكان وتخويفهم عن طريق المناشير التي تتحدث عن قيام الطائرات بقصف مناطق إقامتهم، ولتفادي ذلك يجب عليهم التوجه إلى أماكن معينة محددة في تلك المناشير، وتلك الأماكن هي التي ستتحول فيما بعد إلى محتشدات.

وتقول بعض الإحصائيات أن عدد المحتشدات في الجزائر قد وصل سنة 1958م إلى 1500 محتشد، حشد فيها حوالي 740 ألف جزائري، ووصل عدد المحتشدين سنة 1959م إلى مليون جزائري ليصل العدد الإجمالي عشية الاستقلال إلى حوالي ثلاثة ملايين جزائري (بوعزيز، ي. 1988 : 393).

قبل أن نعرف ما المقصود بالحرب النفسية والوسائل التي استعملتها فرنسا في ممارستها على المعتقلين أود الإجابة أولا على هذا السؤال، ما هي الأهداف النفسية والمعنوية التي كانت تسعى فرنسا إلى تحقيقها من وراء إقامة هذا العدد الهائل من المعتقلات بالجزائر حتى كادت أن تحول الجزائر بكاملها إلى سجن كبير؟

الأهداف النفسية والمعنوية من إقامة المعتقلات والمحتشدات:

يمكن لنا تحديد الأهداف التي كانت تسعى السلطات الاستعمارية إلى تحقيقها من وراء إقامة هذه المعتقلات والمحتشدات في النقاط التالية:

- إبعاد العناصر الحية من الشعب الجزائري عن المساهمة في الثورة، وجعلها تفتقر إلى الرجال وكذلك حرمان الثورة من التزود بالمواد الغذائية وغيرها وكذا منع أي اتصال بين الشعب وجيش التحرير الوطني، وبالتالي خنق هذا الأخير، ودفع الكثير من عناصره إلى الاستسلام أو الموت جوعا وعطشا.

- العمل على ترهيب وتخويف المعتقلين حتى يتم إيصالهم إلى درجة الانهيار المعنوي، ومن ثم ضمها إلى صفوف العدو الفرنسي، وهناك العديد من الأدلة المؤكدة لذلك منها ما سمعه محمد الصالح بن عتيق في معتقل دويرة عندما كان متواجدا فيه في الفترة ما بين 1959م- 1961م، بأن كل استنطاق ينتهي بالموت بعد العذاب الشديد وبعد ما ييأسون من الحصول على معلومات تتعلق بالثورة، أو الوعد بالتعاون معهم يعلق المتهم على إحدى أشجار المعتقل من أول الليل حتى الصباح حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة وينقل جثة هامدة إلى الغابة المحيطة بالمعتقل ويوضع في حفرة قد أعدت من قبل، ثم تصب على جثته مواد محرقة كالجير مثلا فيصبح رمادا تذروه الرياح، وتكرر هذه العملية تحت أنظار المعتقلين وذلك لبث الرعب والخوف في نفوسهم (بن عتيق، م. 1990: 142).

ويقول محمد الصالح بن عتيق بأن أول ما رآه في هذا المعتقل عندما وصل إليه هو ذلك الشعار المكتوب عند مدخله "الفم المغلوق قبر مفتوح (بن عتيق، م. 1990: 141).

ومعنى هذا أن المشرفين على المعتقل أرادوا من خلال وضعهم لهذا الشعار على مدخل المعتقل تحضير الشخص المعتقل قبل أن يرى الجو المرعب والمخيف داخل المعتقل، وكان الهدف أيضا من هذا التخويف والترهيب افتكاك بعض أسرار الثورة من أفواه المعتقلين، إذ يروي أحد المجندين في كتاب "المجندون يشهدون" كيف عذب أحد الثوار لمدة ثماني ليالي متتالية وكانت عملية التعذيب تستمر حتى يشرف على الموت فينعشونه بحقن ليعذب من جديد حتى أصبح "عجينة طرية" في أيدي

معذبيه وتعفن جسمه وقتل في الأخير (العسلي، ب. 1984: 182- 183)، ويروي لنا بيير هنري سيمون (*P.H. Simon*) في كتابه "ضد أعمال التعذيب" كيف أن أحد الضباط "يدلي من طائرة عمودية بواسطة حبال بعض المشتبه في أمرهم ويهددهم بإسقاطهم أرضا إن لم يتكلموا وعندما امتنع هؤلاء عن الكلام قطع الضابط الحبال فسقط أولائك المشتبه فيهم أرضا وماتوا (العسلي، ب. 1984: 182- 183).

- العمل على بعث التفرقة السياسية والنعرات الجهوية وخلق اضطرابات بين أبناء البلد الواحد للقضاء على الوحدة الوطنية وتفكيك اللحمة الرابطة بين الشعب وجيش التحرير الوطني وجبهته ومن الأمثلة على ذلك ما وقع مثلا في معتقل الشحمي خلال منتصف سنة 1961م وهو حادث وقع بين المعتقلين القادمين من فرنسا والذين يحملون فكرة مناهضة لجبهة التحرير الوطني وجيشها وبين أنصار الجبهة وكان المناهضون على اتصال مستمر بالحراس واتفقوا معهم على أن يباغتوا رجال الجبهة ليلا في مضاجعهم فانهالوا عليهم بالضرب فقامت ضجة كبرى واشتعلت نار الفتنة واشتبك الفريقان في عراك عنيف ..." (بن عتيق، م. 1990: 147). وبشكل عام فإن الإدارة الاستعمارية كانت تبث داخل المعتقلات والمحتشدات بعض عملائها وهدفهم هو إثارة الفتن والاضطرابات في أوساط المعتقلين وبتذكير هؤلاء المعتقلين مثلا بما كانوا عليه في الماضي من خلاف ونزاع، وكذا تحريك النعرات الجهوية بهدف إحداث التفرقة وغيرها من هذه الأعمال التي كانت دائما تهدف إلى تدمير الإنسان الجزائري من الداخل ومن ثمّ إجهاض ثورته التحريرية.

- محاولة جعل المعتقلين والذين زج بهم في المحتشدات مهيئين نفسيا لتقبل مختلف المشاريع والطروحات الفرنسية والهادفة إلى إخماد نار الثورة مثل مشروع سلم الشجعان، أو وضع السلاح قبل التفاوض، وكذا السعي إلى خلق القوة الثالثة بالإضافة إلى زرع الشك في قيادات الثورة، مثلما حاولوا مع عبد الرحمن قاسم الذي كان يشرف على الناحية الثانية لباريس وألقى عليه القبض في 1957م وكانوا يقولون له بأن القيادة تتمتع بالسيارات والنساء في الخارج بالأموال التي تجمعونها لهم في الوقت الذي يرسلونكم إلى الموت (خلاصي، ع. 1994: ع/7: 205- 213).

وتنبغي علينا الإشارة هنا إلى أن جل هذه الأهداف التي سعت فرنسا إلى تحقيقها من إقامتها للمعتقلات والمحتشدات كلها تدخل في إطار ما يعرف باسم الحرب النفسية، فما هي هذه الحرب وما هي الوسائل المستعملة في ممارستها ضد المعتقلين الجزائريين والذين زجت بهم في المحتشدات؟

الوسائل المستعملة في ممارسة الحرب النفسية:

لقد أدركت الإدارة الاستعمارية وخبرائها العسكريين أن عملية القضاء على الثورة الجزائرية بالحرب العسكرية لوحدها أصبحت في حكم المستحيل، لذا جندت كل خبرائها في شتى المجالات لإيجاد وسائل أخرى أكثر نجاعة من الوسيلة العسكرية للقضاء على هذه الثورة، وكان من نتائج ذلك إدخال أسلوب الحرب النفسية بشكل قوي وفعال إلى الميدان، فما المقصود بالحرب النفسية، وكيف مارستها الإدارة الفرنسية داخل المعتقلات والمحتشدات الجزائرية؟

المقصود بالحرب النفسية:

هي نوع من القتال النفسي الذي يسعى إلى تدمير معنويات الشخص المستهدف وتحطيم إرادته الفردية، وتهدف أيضا إلى خلق تصورات معينة عن طريق الدعاية أو عمليات عسكرية استعراضية، وإحداث الفوضى والبلبلة في معسكر العدو للتأثير على الروح المعنوية للجنود على انضباطهم وعلى قرارات ضباطهم وقراراتهم، أمّا عن أدواتها فهي متنوعة، تتمثل في وسائل الإعلام المختلف والإشاعات والإرهاب البدني أو النفسي، والمنشورات التي تلقى من الطائرات على المدن وتجمعات القوات العسكرية، والاستعمار الفرنسي من استعماله لهذه الحرب ضد الجزائريين كان يهدف إلى تحطيم نقاط القوة التي كان يتمتع بها الشعب الجزائري وعلى رأسها إرادتها القتالية وإبعاد الشعب عن ثورته باعتباره الممون الرئيسي لها بالقوة المحركة (لونيسي، إ. د.ت: 119).

أ. الوسائل:

يمكن لنا تحديد هذه الوسائل في النقاط التالية:

- استعمال المعتقلات كوسيلة للتأثير معنويا على المجاهدين خاصة والشعب الجزائري عموما، إذ أن السلطات الفرنسية كانت حريصة بشكل كبير على أن تكون هذه المحتشدات والمعتقلات بالقرب من المراكز العسكرية الفرنسية حتى تحاول إيهام الرأي العام الدولي بأن هؤلاء السكان سئموا من الثورة والثوار مما دفع بهم إلى الفرار من الجبال والأرياف والمداشر التي يقطنونها إلى هذه المناطق التي يقيم فيها الجيش الفرنسي حتى يوفر لهم الأمن والحماية، فقد كانت هذه السلطات

تستدعي من حين لآخر بعض الصحفيين ليأخذوا صور الجموع المدنيين لنشرها في الصفحات الأولى من جرائدهم ويعلقون عليها بقولهم: "المدنيون الجزائريون سئموا من الثوار وها هم يحتمون بقوات الأمن والسلام ..." أو بقولهم "إن التهدئة تتقدم بخطى سريعة (المجاهد. 1985).

- محاولة التأثير معنويا على المقيمين في هذه المحتشدات والمعتقلات والعمل على استمالتهم إلى جانب السلطات الاستعمارية وذلك بدفعهم شيئا فشيئا إلى التخلي عن أفكارهم الوطنية بواسطة دروس خاصة عن محاسن الاستعمار وإنجازاته، وكان هذا الأسلوب يستعمل بصفة خاصة مع المثقفين، ويمكن لنا إدراج هذه العملية في ما يعرف باسم "عملية غسل الدماغ" وكانت الإدارة في الكثير من الأحيان تلجأ إلى استعمال حقن محرمة دولية وكذا بحقن تشكل خطرا كبيرا على الإنسان منها حقن من مادة "البانتوتال" التي يقول عنها فرانز فانون "إذا كانت مادة البانتوتال تزيل لدى المصابين بأمراض العصاب الحواجز التي تحول دون خروج الصراع النفسي إلى النور فلا بد أن تستطيع هذه المادة أن تحطم لدى الوطنيين الجزائريين الحاجز السياسي وأن تسهل حمل السجين على الإدلاء بالاعترافات التي ترغب فيها السلطات الاستعمارية (فانون، ف. 1990: 292) والشخص الذي يحقن بهذه المادة يصبح منوما مغناطيسيا فاقدا لإرادته وشخصيته ويتحول إلى أداة طيعة في أيدي السلطات الاستعمارية في الكثير من الأحيان ويأخذ هؤلاء الأشخاص في تكرار ما تعلموه من تلك الدروس على زملائهم الآخرين في شكل وعظ وإرشاد ونصائح وفي الأخير تؤدي هذه العملية إلى حدوث سوء تفاهم تؤدي بهم إلى

القيام بوشايات ضد بعضهم البعض وكشف ما لديهم من الأسرار التي تفيد في تحطيم الثورة (بوعزيز، ي. 1980: 401).

وهذه العملية تجعلنا نفهم لماذا عمدت السلطات الفرنسية إلى خلق نوع من التفرقة بين الجزائريين المعتقلين التي كانت تقسمهم إلى مجموعتين مثقفين وغير مثقفين وتقوم بالفصل بينهم (الأطرش، م. 1984: مج2/ج2/ 86؛ بن عتيق، م. 1990: 142)، وهذا حتى تتعامل مع كل فريق بأسلوب خاص في عملية غسل الدماغ ولقد أشار إلى هذه القضية فرانز فانون، فالطريقة المتبعة مع المثقفين هي أن يطلب منهم تمثيل دور المتعاون مع الفرنسيين وأن يقوم بتبرير هذا التعاون تم يطلب منهم أن يكتبوا دراسات عن قيمة المهمة التي تحققها فرنسا، ثم في الأخير يقوم بدحض حجج الثورة الجزائرية وتفنيدها واحدة تلوى الأخرى، وبعد أن يقوم الشخص المستهدف بكل هذه العمليات يطلب منه إلقاء حديث في هذه الموضوعات ويجب أن يكون الحديث مقنعا وتقدر لهذه الأحاديث علامات وتجمع العلامات في نهاية كل شهر، وتعتبر هذه العلامات أساسا في تقدير استحقاق المثقف للخروج من السجن أو عدم استحقاقه، أما مع غير المثقفين فيعتمدون على أسلوب التعذيب والتجويع والمكافأة التي يتلقاها المعتقل هو الكف عن تعذيبه وبأن يقدم له الأكل ولا يتحقق ذلك إلاّ بعد أن يعترف الشخص المستهدف بأن جبهة التحرير الوطني كلها بؤس وينادي بضرورة سقوطها (فانون، ف. 1990: 254- 257).

وأبرز ما كانت تهدف السلطات الفرنسية الى تحقيقه من وراء عملية غسل الدماغ هو زرع الشك والبلبلة بين صفوف المجاهدين خاصة

بعد فرار الكثير من المعتقلين أو بعد إطلاق سراح بعضهم ورجوعهم إلى الميدان ولقد نجحت فرنسا في أحدات ذلك في بعض المناطق بسبب تلك الدعاية التي أعطيت لهذه العملية ويعترف عبد الحفيظ أمقران بحدوث كثير من البلبلة والشكّ في الولاية الثالثة من جراء كل ذلك إذ يقول "قاسينا كثيرا من هذه المحنة محنة غسل الأمخاخ وإرسال بعض الناس من هذه الفئة إلى الأرياف والمناطق المجاورة للعاصمة، حيث وقعت بلبلة في الأفكار ودخل نوع من الشك حتى أصبح بعض المسؤولين على مستوى جيش التحرير وجبهة التحرير يشكون في هؤلاء الناس الذين خرجوا من العاصمة ويطالبون بالتجنيد والدخول في صفوف جيش التحرير الوطني، حقيقة وقع شك كبير لماذا لأن معلومات جاءتنا عن هذه العملية الجهنمية التي وقعت في العاصمة أي غسل الأمخاخ وتحويل هؤلاء المناضلين فيما مضى إلى أناس كأنهم عيون للاستعمار ...".

- تعمدت السلطات الفرنسية على أن تجمع في الكثير من المعتقلات العديدة من الأفراد الذين ينتمون إلى الأحزاب والهيئات السياسية الوطنية التي كانت سائدة قبل الثورة حتى يؤدي ذلك إلى قيام مشاجرات ومجادلات عنيفة بينهم، بل وفي بعض الأحيان كانت الأمور تتطور إلى مشادات بالأيدي ومن الأمثلة على هذا نورد هذه الحادثة التي رواها الأستاذ محمد الطاهر الأطرش "كنا إذا جاء إلينا أحد المعتقلين الجدد نحتفل به ونطالبه بتقديم معلومات عن سير حركة الثوري في الخارج ونوصيه بالمحافظة على آداب المعتقل، ومن ذلك ترك تحزبه جانبا سوى انتمائه لجبهة التحرير الوطني فقدم إلينا الشيخ مصباح الحويذق، وفي

الغد تلاه الشيخ عبد القادر الياجوري فاحتفلنا كالعادة بهما وقدمتهما إلى المعتقلين باسم لجنة التسيير لإلقاء كلمات بعد أن أوصيتهما بالابتعاد عن ذكر جمعية العلماء والاقتصار على ذكر جبهة التحرير الوطني فأما الشيخ عبد القادر الياجوري أجاد في كلمة وأفاد المعتقلين، وأمّا الشيخ مصباح الحويذق فقد بدأ كلمته بما كنت قد حذرته منه فقال أن جمعية العلماء هي صانعة الثورة مما أدى إلى إثارة النعرات الحزبية من جديد وخلق جو مكهرب دام عدة شهور، اغتنم فيه المصاليون هذه الفرصة لبث التفرقة والتطاحن ومحاولة جلب أفراد من المركزيين إليهم (الأطرش، م. 1984: مج2/ج2/ 88).

ومما لا شك فيه أن فرنسا كانت تهدف من وراء هذه العملية إلى التأثير على بقية المعتقلين وخاصة العاديين منهم، وكذا ذوي النفوس الضعيفة حتى يتراجعون عن تأييدهم للثورة، ولما لا تحويلهم إلى عناصر فاعلة في خدمتها.

- دسها لبعض الموظفين والأطباء الفرنسيين في هذه المعتقلات والإشاعة بأنهم على اتصال بجبهة التحرير الوطني، ويقوم هؤلاء بالنضال من أجل تحسن الظروف المعيشية والصحية لهؤلاء المعتقلين، وكل هذا بهدف كسب ثقة المعتقلين كمرحلة أولى ثم افتكاك بعض أسرار الثورة منهم كمرحلة ثانية وكمرحلة ثالثة تحويلهم إلى عملاء لفرنسا بدون أن يشعروا بذلك.

من هنا نلاحظ أن فرنسا قد استعملت بالفعل كل الوسائل المتاحة لها للقضاء على الثورة التحريرية إلا أنها فشلت في ذلك بل إن ما كانت

تهدف إلى تحقيقه بهذا الأسلوب انقلب سلبا عليها حيث تحولت هذه المعتقلات والمحتشدات إلى مراكز لتوعية الجزائريين بأهمية الثورة وضرورة الالتفاف حولها.

الإحالات:

الأطرش، محمد الطاهر. (1984). المعتقلات والسجون الاستعمارية في الفترة ما بين 1 نوفمبر 1954م و20 أوت 1956م: الملتقى الوطني لتاريخ الثورة قصر الأمم من 8 إلى 10 ماي 1984م.

بن عتيق، محمد الصالح. (1990). أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر. الجزائر: منشورات دحلب

بوعزيز، يحي. (1980). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1. قسنطينة: دار البعث.

جريدة، المجاهد. (15 مارس 1958م).

خلاصي، علي. (1994). "أساليب التعذيب والتذليل التي مارستها فرنسا ضد الشعب الجزائري 1954م- 1962م". مجلة التراث، جمعية التاريخ والتراث الأثري بمنطقة الأوراس، ع7 نوفمبر ، ص ص 205- 213.

العسلي، بسام. (1984). المجاهدة الجزائرية والإرهاب الاستعماري. بيروت: دار النفائس.

فانون، فرانز. (1990). معذبو الأرض. الجزائر: موفم للنشر.

لونيسي، إبراهيم. (د.ت). المجاهد ودورها في الحرب النفسية إبان الثورة التحريرية، في الإعلام ومهامه أثناء الثورة، م. و. د. ب. ج. و. ث. 1 نوفمبر 1954م، سلسلة الملتقيات.